الأصول الثقافية للنهضة اليابانية الحديثة

١٨٥٤ — ١٩٠٤

للدكتور رءوف عباس حامد

كلية الآداب — جامعة القاهرة

لاريب أن الأصول الثقافية لكل مجتمع من المجتمعات هى محصلة الإنجازات الحضارية فى المجتمع بكل جوانبها : الأدبية ، والفنية ، والصناعية ، والسلوكية ، وغيرها . وتقييماً لأى مجتمع من المجتمعات فى مرحلة من مراحل تطوره الحضارى، إنما يعتمد على ما يتوافر له من أصول ثقافية ، وما تتسم به مرحلة التطور هذه من توازن بين المكونات المختلفة للثقافة . وبقدر ما يتحقق هذا التوازن ، يتحدد مسارة التطور الذى يقطعه المجتمع فى مراحل حياته ، والذى يشتمل على جميع العناصر المكونة للحضارة من تراث أصيل ، وأسلوب للتعبير عن ضمير المجتمع ، وقيم جمالية يتسم بها ... الخ . فإذا تطور أحد هذه العناصر بصورة أسرع من تطور العناصر الاخرى ، أو تجمدت بعض هذه العناصر عند حد معين من التطور ، بينما إستمرت العناصر الأخرى فى تطورها ، فان ذلك يؤدى إلى وقوع التناقض بين العناصر المكونة للشخصية الاجتماعية مما يترتب عليه إعاقة عملية التطور الحضارى ذاتها .

وتجربة النهضة اليابانية الحديثة (١٨٥٤ – ١٩٠٤) وهى الفترة التى غلب فيها على التجربة اليابانية الأخذ بالمظاهر المادية للحضارة الغربية من حيث

التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، وإقامة صناعة حديثة، وتكوين مؤسسات الدولة بالمفهوم الحديث، جديرة بالدراسة، فهى تقدم لنا نموذجا للتطور غير المتجانس بين العناصر المكونة للشخصية الحضارية اليابانية. فعلى حين بقى التراث الثقافى للشعب اليابانى جامدا عند مرحلة معينة من مراحل التطور لم تتجاوز حدود المحافظة على الأفكار القديمة المتوارثة، وظل سلوك الشعب منحصراً داخل إطار تراثه الموروث، تطورت الصناعة والأساليب الفنية بصورة سريعة غير متجانسة مع بقية المظاهر الحضارية فى المجتمع اليابانى.

ودراسة مثل تلك التجربة يحتاج منا إلى القاء نظرة على الظروف التاريخية التى أحاطت بها وتمت فى ظلها، مع الإهتمام — بصفة خاصة — بالأصول الثقافية التى كانت بمثابة الأرضية التى قامت عليها تلك المرحلة الهامة من مراحل تطور المجتمع اليابانى.

فقد لفتت اليابان أنظار العالم فى عام ١٩٠٤ حين ظهرت على مسرح السياسة العالمية كدولة شرقية حديثة، قادرة على الحاق الهزيمة بدولة أوربية كبرى هى روسيا، وكان ظهور اليابان كقوة لها شأنها ثمرة جهود نصف قرن من الزمان، عمل الشعب اليابانى خلاله فى صمت وصبر وعزيمة لا تعرف الكلل من أجل بناء الدولة العصرية. وتبدأ تلك الفترة بعام ١٨٥٤ الذى أرغمت فيه اليابان إرغاما على كسر حلقة العزلة التى ضربتها حول نفسها مدة قرنين من الزمان تحت حكم أمراء الإقطاع من أسرة طوكوجاوا Tokugowa Bokufu الذين حجروا على سلطة الإمبراطور، وإنفردوا بحكم البلاد باسمه ومنذ ذلك التاريخ بدأت اليابان مسيرتها على طريق تأسيس الدولة الحديثة.

وبنت اليابان نهضتها الحديثة على يد حركة سياسية قامت فى عام ١٨٦٨، إستعادت سلطة الإمبراطور، وتمت تصفية الإقطاع، وإقامة الدولة القومية

ذات الحكومة المركزية ، وأدخل نظام التعليم الحديث ، وتم بناء الجيش وفق النظام الغربى ، وأقيمت صناعة حديثة ، وأرسيت دعائم الحكم على أسس دستورية تتلائم مع ظروف البلاد، إلى غير ذلك من مظاهر الدولة التى حققتها اليابان فيما يعرف فى تاريخها بعصر مايجى Meiji (١٨٦٨ — ١٩١٢)

يرجع المؤرخون بداية التاريخ اليابانى إلى عام ٦٦٠ ق . م . ، حيث درج اليابانيون على إعتبار عهد الإمبراطور جيمو Jimmu بداية لتاريخ بلادهم بينما يذهب بعض المؤرخين إلى أن اليابان ليس لها تاريخ معروف قبل الميلاد وأن تاريخها إنما يبدأ حوالى نفس الوقت الذى بدأ به التقويم الميلادى . ومهما كان الأمر فان الشعب اليابانى برز إلى الوجود عند مطلع التقويم الميلادى كشعب مستقل يعيش على الجزر اليابانية ، وله حضارته الخاصة المميزة .

وعلى مر تاريخهم القصير ، لم يفقد اليابانيون الصلة بالعالم الخارجى ، والعالم الخارجى هنا هو القارة الآسيوية ، فلم تكن الظروف الجغرافية والتاريخية قد تطورت على النحو الذى نعرفه الآن ، حين ألغيت المسافة ، وأصبحت كلمة « العالم » تعنى الأرض كلها . وإستطاعت اليابان أن تجلب من القارة الآسيوية ألوان الحضارات والثقافات التى سادت فى تلك العصور ، فانتقلت اليها المؤثرات الصينية والمغولية ، إما من الصين مباشرة ، وإما عن طريق كوريا ، فتركت آثارا واضحة على نظام الدولة ، وعلى الحضارة اليابانية . كذلك إنتقلت البوذية إلى اليابان قادمة من الهند عن نفس الطريق ، وأصبحت البوذية عقيدة الشعب اليابانى . وخلال عملية الامتصاص الحضارى تلك لم يكن اليابانيون مجرد مقلدين لتراث غيرهم من شعوب ، وإنما إستطاعوا أن يطوروا حضارتهم الخاصة بهم ويطوعوا تلك الحضارات الوافدة لظروف وتقاليد المجتمع اليابانى (١) .

فقد إمتاز اليابانيون بالقدرة على هضم المؤثرات الحضارية الأجنبية ، مع المحافظة فى الوقت نفسه — على القيم التى توارثوها عن أجدادهم ، حتى يبدوا ما اقتبسوه من الحضارات الأجنبية وكأنه عنصر أصيل فى الحضارة اليابانية ذاتها ، بعد ما يوفقون بين العناصر المكتسبة والعناصر الأصلية المتوارثة .

وهذه المقدرة التى تمتع بها اليابانيون يمكن أن نلمسها فى مجالات متعددة، من بينها اللغة اليابانية التى تحفل بالكثير من المفردات الأجنبية، وقد حرص اليابانيون على إتخاذ التراكيب الصينية للدلالة على المفردات ذات المعانى الهامة ، بما فى ذلك المفردات التى إكتسبتها اللغة اليابانية من اللغات الأوربية ، وكثيرا ما كانت تحمل الكلمات المستعارة من اللغات الأجنبية معانى متعددة فى اليابانية تتجاوز المعنى الذى كانت تحمله فى لغتها الأصلية، فقد كانت تلك الكلمات المستعارة فى الأصل أسماء وحين أدخلت على اليابانية إستخرجت منها صيغ مختلفة كالأفعال والصفات بعد إضافة الضوابط النحوية اليها . وبذلك تتحول الأسماء التى إقتبست من اللغات الأجنبية للتعبير عن أشياء لا تتضمنها المفردات اليابانية ، تتحول بعد إدخالها على اليابانية إلى مادة لغوية ذات طابع يابانى يجعلها تختلف كثيرا عن الأصل التى استمدت منه . وبذلك بقيت اللغة اليابانية تحتفظ بطابعها المميز — رغم المؤثرات الأجنبية التى تعرضت لها — دون أن يطرأ عليها تغير ملحوظ (٢) .

وفى ميدان السياسة أيضا كانت اليابان دائما قادرة على هضم الاتجاهات السياسية المختلفة دون أن يتأثر بذلك الكيان السياسى لليابان ، ودون أن يصحب ذلك تغيير الهيئة الحاكمة . فلم تشهد اليابان على مر تاريخها ثورة راديكالية تطيح بطبقة حاكمة لتحل محلها طبقة أخرى ، رغم أن النظام السياسى فى اليابان لحقه التغيير والتبديل ، فظلت الأسرة الحاكمة تحظي

باحترام الناس وتوقيرهم وإجـــلالهم بفضل ما كان لها من سلطنة روحية تضرب بجذورها فى أعماق التراث اليابانى القديم .

ونستطيع أن نتبين ظاهرة الامتصاص والهضم الحضارى فى أسلوب حياة اليابانيين من حيث الملبس والمأكل والمسكن ، وكذلك فى الفن الذى حقق الوحدة بين القديم المتوارث والحديث المكتسب فى إطار واحد ،وفى ميدان العقيدة الدينية استطاعت اليابان أن تجمع بين العقائد المتباينة ، والتى تدور حولها خلافات كبيرة وحادة فى بلادها الأصلية فتتحول فى صيغتها اليابانية إلى مزيج جديد من تلك العقائد مجتمعة دون تناقض بينها ، وذلك بعد تطويع تلك العقائد للتراث اليابانى وإدخال بعض عمليات التطعيم عليها ، بمـا يترتب عليها من حذف وإضافة ، فتبـدو فى سماتها اليابانية بعيدة إلى حد كبير عن أصولها التى استمدت منها[٣] .

فقد استطاع اليابانيون أن يجمعوا بين ثلاث عقائد هى : الشنتوية Shintoism (اليابانية) ، والبوذية (الهندية) ، والـكونفوشيوسية (الصينية) فى وقت واحـد ، ويمزجوا بينها لتصبح عقيـدة يابانية واحدة ، تطوع الـكونفوشية والبوذية لمعتقدات الشنتوية التى ترتبط بالوطن اليابانى والأسرة الحاكمة. وليس أدل على ذلك من موقف اليابانيين من نظام الحكم الامبراطورى سليل الآلهة، وفى البوذية اعتبروه «سليل بوذا العظيم» وفى الـكونفوشيوسية اعتبر الامبراطور « منبع الفضائل التى يقوم على أساسها المجتمع الخير » .

كذلك كان الحال بالنسبة لفـكرة المساواة الاجتماعية من وجهـة نظر العقيدة الدينية ، فقد كان الأطفال اليابانيين ينشئون على تقبل التفاوت بين المـكانة الاجتماعية للناس ، ووجد هذا الموقف التبرير المناسب فى التراث الدينى اليابانى ، فالناس غير متساوين لأن دماءهم ليست واحدة: الامبراطور — مثلا — تجرى فى عروقه دماء الآلهة لأنه انحدر من نسل الآلهة الشمس

وعلية القوم انحدروا من سلالة ذات منزلة رفيعة متأصلة ، وإذا كان هذا موقف الشنتوية من فكرة المساواة الاجتماعية ، فان التطبيق اليابانى للكونفوشيوسية أخذ بهذا المبدأ أيضاً ، فاعتبر الناس يختلفون اجتماعياً بقدر ما يتوافر لهم من الفضائل : فذوى الفضائل العالية السامية يتمتعون بمكانة اجتماعية ممتازة ، أما أولئك الذين لا يتوافر لهم إلا درجات محدودة من الفضائل فيصنفون اجتماعياً حسب حظهم من تلك الدرجات . كذلك عالج التطبيق اليابانى للبوذية فكرة التفاوت الاجتماعى فربط مكانة الناس الاجتماعية بما لديهم من مقدرة على الكفاح من أجل الخلاص ، وهم كما يتفاوتون فى الصبر على الكفاح ، يتفاوتون كذلك فى التنمية الاجتماعية(٤) .

شيء واحد لم تحاول اليابان أن تتعرف عليه هو « المسيحية » فحين بدأ الجزويت نشاطهم التبشيرى عام ١٥٤٩ قاومهم حكام اليابان ، ومنعوهم من دخول البلاد ، وحرموا على الشعب اعتناق المسيحية ليحافظوا على التراث الدينى اليابانى ، وليحولوا دون تغلغل الأجانب ، ومن ثم التدخل الأجنبى فى البلاد . وقد ظلت فكرة اليابانيين عن المسيحية متأثرة بهذا الاتجاه ، حتى بعد سقوط النظام الإقطاعى وبناء الدولة الحديثة . ويتجلى ذلك بوضوح فى آراء كبار المفكرين اليابانيين فى عصر مايجى المتعلقة بالدين ، إذ يقول فوكوزاوا المفكر اللبرالى : « إن العقلية اليابانية لا تقبل المسائل ذات الوجوه المتعددة ، وإنما تميل إلى تلك التى لها جانب واحد ، فهم يتقبلون المتشابهات ويرفضون المتناقضات ... وإنى أكره الغيبيات ، ولكن الأفكار الغيبية (الفكر التقليدى اليابانى) أحب إلى نفسى من مسيحية الرجل العصرى ، لأنها على الأقل مخلصة وجادة ، وتختلف بصورة جذرية عن ديانة الرجل العصرى التى ليست سوى نوع من الهواية ... »(٥) .

ولكن ذلك لا يعني أن اليابان أغلقت أبوابها دون المؤثرات الحضارية

الغربية ، فقد أخذ بصيص من الثقافة الغربية يتسرب إلى البلاد عن طريق الهولنديين الذين سمح لهم بالاتجار مع اليابان فى مكان محدود هو جزيرة ديجما Dejime التى تقع بخليج نجاساكى ، فقد قدر لهذه الجزيرة أن تكون الجسر الذى انتقل عبره قبس الثقافة الغربية إلى اليابان منذ أواخر القرن السادس عشر ، حتى منتصف القرن التاسع عشر حين أرغم الكومودور بيرى Commodore Perry القائد البحرى الأمريكى اليابان على فتح موانيها أمام التجارة الغربية فى عام ١٨٥٤ ، ومنذ ذلك الحين بدأت المؤثرات الثقافية الغربية تغزو اليابان لتضعها على أعتاب العصر الحديث(٦) .

ولم تتقبل اليابان الحضارة الغربية بنفس الطريقة التى تقبلت بها الحضارات الآسيوية ، ولم تهضمها بالسهولة التى هضمت بها تلك الحضارات ، فلقيت الأفكار الغربية مقاومة صلبة من العقلية اليابانية التى تكونت على نمط تقليدى معين ، وتأثر التراث اليابانى بالحضارات الشرقية التى اقتبس منها ما اقتبسه ، وكان هذا التراث متلائماً مع أسلوب الإنتاج السائد فى ذلك العهد باعتباره إنتاجاً زراعياً تقليدياً فى ظل نظام إقطاعى ، فلم يكن ثمة تناقض بين القيم المتوارثة وبقية مظاهر الحضارة السائدة فى المجتمع حينذاك فكان التطور متوازنا حتى ذلك الحين ، ولكن إدخال الأساليب الغربية فى التعبير والإنتاج التى تطورت فى ظروف تختلف اختلافاً جذريا عن تلك التى عاشها المجتمع اليابانى لا يتوازن مع القيم التقليدية اليابانية العتيقة . ومن هنا كان نفور اليابانيين من الحضارة الغربية شديداً وكان موقفهم عنها عدائياً متطرفا . لذلك لم يكن غريباً أن يرفع اليابانيون — فى ذلك العهد — شعار « اطردوا الأجانب واستعيدوا سلطة الامبراطور Sonno Joi » فى وجه المؤثرات الحضارية الغربية الوافدة ، وفى وجه التمزق الداخلى الذى عانت منه البلاد فى أواخر عهد الحكام الإقطاعيين من أسرة طوكوجاوا . وأطلق اليابانيون على الأوربيين اسم « البرابرة ذوى الشعر الأحمر » ، وأطلقوا على علوم الغرب

اسم « علوم البرابرة » ، واعتبروا كل من يروج لأفكار الغرب أو علومه خائن لوطنه جزاؤه الإعدام[٧] .

ولكن التحدى الغربى الذى واجهته اليابان على يد بيرى Perry واستسلام الحكام اليابانيين له ، جعل الشعب اليابانى يراجع موقفه من الحضارة الغربية ، فالأمريكيين انتصروا على اليابان وفرضوا عليها الانفتاح على العالم الخارجى وفتح موانيها للتجارة العالمية ، وما كان لهم أن يحققوا ذلك لولا تمتعهم بالقوة التى تفتقر إليها اليابان ، فقد انتصروا لأنهم الأقوى ، ولا بد أن يكون هناك سر لهذه القوة المادية . إذن لماذا لا تبحث اليابان عن هذا السر وتتزود به لتصبح قادرة على مواجهة الغرب أو على الأقل مقاومته .

لذلك صرف اليابانيون النظر عن شعار « اطردوا الأجانب » وبدأ حكام بعض المقاطعات الإقطاعية يشجعون النابهين من أبناء مقاطعاتهم على تعلم معارف الغرب ، وأوفد بعضهم بعثات محدودة إلى بريطانيا وأمريكا لدراسة الهندسة ، وبدأ البعض الآخر إقامة مشروعات صناعية ، وإعادة تنظيم جيوشهم وفق النظام الغربى الحديث . وامتدت محاولات الإصلاح المحدودة هذه لتشمل البلاد كلها بعد نجاح حركة استعادة سلطة الامبراطور فى عام ١٨٦٨ ، فأصبح شعار « التحضر والاستنارة Bunmei Kaika » هو شعار عهد الإصلاح الذى عرف فى تاريخ اليابان باسم عصر مايجى Meiji[٨] .

غير أن ذلك لا يعنى أن النهضة اليابانية الحديثة قامت على أسس فكرية غربية خالصة ، فقد كان التطور الاقتصادى والسياسى الذى حققته اليابان فى عهد مايجى ، منصباً على جانب واحد هو جانب الإنتاج ونظام الحكم ولم يصحبه تطور مماثل فى الأصول الثقافية التى قامت عليها الحضارة اليابانية التى ظلت تحتفظ بطابعها التقليدى الذى وصلت إليه عند منتصف القرن التاسع عشر ، وجمدت عند هذا الحد من التطور فلم تواكب التطور فى النواحى

الاقتصادية والسياسية ، فحدث تناقض كبير بين أسلوب التفكير ومنهج العمل ترك أثراً واضحاً على مسيرة التجربة اليابانية ذاتها .

فقد كان التراث الثقافى اليابانى يضع إطاراً محدداً جامداً للعلاقات داخل المجتمع تدور حول فكرة «وحدة المجتمع» ، كما عبرت عنها الكونفوشيوسية اليابانية ، فالفرد فى ظل تلك الفكرة لا قيمة له بذاته ، ولكن قيمة الفرد إنما تكون بالجماعة التى ينتمى إليها سواء كانت الأسرة أو العشيرة أو الأمة ، إذ تسمو الروابط الاجتماعية على العلاقات الشخصية الفردية . ورغم الاعتراف بما للفرد من شخصية مستقلة ، فان ذلك لا يعنى أن الأفراد يتمتعون بمكانة مستقلة عن الجماعة . وقيمة الفرد ترتبط بمكانة الطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها وهى ظاهرة اجتماعية نجد صداها فى اللغة اليابانية التى لا تحتوى على صيغة مفرد وصيغة جمع ، وإنما هناك صيغة واحدة تستخدم للمفرد والمثنى والجمع دون تمييز . كما تبدو أيضاً فى أسلوب المخاطبة حيث تراعى منزلة المخاطب من حيث الجماعة التى ينتمى إليها ، كما تراعى سن المخاطب داخل الجماعة الواحدة ، فيستخدم الصغير صيغة معينة عندما يتحدث إلى من يكبره سناً ، « فالفرد يعبر عن الجماعة ، والجماعة بدورها تعبير عن الفرد » على حد قول أحد فلاسفة اليابان فى القرن الحادى عشر الميلادى(٩) .

وألقت هذه الظاهرة ظلالها على العقيدة البوذية ، فعند اعتناق اليابانيين للبوذية لم يلقوا بالا إلى الاختلاف الواضح بين النفوس البشرية الذى تبرزه البوذية فى أصلها الهندى ، ويتضح هـــذا بجلاء فى قول ريونين Ryonin (١٠٧٢ — ١١٣٢) مؤسس أحد المذاهب البوذية اليابانية : « إن الفرد يبدو فى جميع الأفراد ، والعمل الذى يستحق الثواب هو كل الأعمال المثابة ، وكل الأعمال الخيرة تنجلى فى العمل الذى يستحق الثواب ، وهى تقود إلى أرض الطهارة بفضل أميدا Amida » وعلى حين تذهب البوذية الهندية إلى أن :

« لا يغنى الأبناء ولا الآباء ولا الأقارب المرء شيئا حين يدنو أجله . . . » ، وأنه « لا سلطان على النفس سوى النفس ذاتها » ، فتركز بذلك على الاعتماد على النفس باعتباره ركن الفضائل ، وترى أن الخير فى الركون الى الذات والبعد عن الناس إذ تقول : « إن أصدقائك هم أصدقاء أنفسهم ... فلماذا تلتمس صديقا ، وحسبك صداقتك لنفسك » ، وبذلك تقوم البوذية فى أصلها الهندى على الفردية ونبذ الجماعة ، نجد التطبيق اليابانى للبوذية يتوائم مع طبيعة المجتمع اليابانى وتراثه التقليدى القائم على نبذ الفردية والإيمان بالجماعة ، فتذهب إلى أنه « يجب أن يكون الفرد أقرب إلى أخواته فى البوذية منه إلى نفسه » ، فتعتبر بذلك عن ذوبان الفرد اليابانى فى الخلية الاجتماعية التى ينتمى اليها (الأسرة) ، وذوبان الخلية الاجتماعية فى الخلية الأكبر منها (القرية) ، لتشكل جميعا كيانا واحدا (الوطن) [١٠] .

ولعل إنفراد اليابانيين بهذه السمة الحضارية يرجع إلى طابع الحياة الاجتماعية الذى ساد اليابان ، والذى كان يتفق مع الظروف الطبيعية للبلاد ، فهى ذات جبلية وعرة ، تكسوها الغابات ، ويحتوى على البراكين التى تنشط أحيانا فتلحق الدمار بما حولها ، ولا تكاد توجد بالبلاد سهول واسعة ، ولا تزيد مساحة الأراضى الصالحة للزراعة عن خمس مساحة السطح . وهى تجمع من حيث المناخ بين الصيف الحار شديد الرطوبة غزير المطر ، والشتاء القارس البرد الذى يتساقط فيه الجليد بغزارة وخاصة فى الشمال والشمال الغربى [١١] . لذلك كان اليابانيون يعيشون فى نضال مستمر ضد الطبيعة ، ومثل هذا الصراع لا يقوى عليه الأفراد ، وإنما يقتضى تضافر الجهود من أجل البقاء . فكان لا بد أن يعيش الناس فى جماعات ذات تنظيم دقيق يتمتع فيها رئيس الجماعة بسلطات واسعة على أفراد جماعته ، حتى أن هذه الظروف الطبيعية تركت آثار واضحة على التكوين النفسى للناس يعبر عنها القول المأثور الذى تناقلته الأجيال منذ القدم ، والذى يذهب إلى أن

« هناك أربعة يثرن الفزع : الزلزال Jishin ، والعاصفة الرعدية Kaminari الحريق Kaji ، والأب (أو رب العائلة) Oyaji » . وليس من الغريب أن تكون سلطة الأب أو رب العائلة صارمة كصرامة الكوارث الطبيعية ،لأن مواجهة الحياة فى مجتمع له مثل تلك الظروف الطبيعية القاسية يقتضى وجود تنظيم دقيق للجماعة ، يتمتع فى ظله رئيس تلك الجماعة بسلطات مطلقة وكلمة مسموعة مرهوبة .

وعلى النقيض من ذلك نجد أن الشعوب الهندو — أوربية — على سبيل المثال — كانت تعيش فى الأصل حياة سكان السهول، حيث الرعي والترحال وتعتمد على الصيد والاغارة على الشعوب الأخرى من حين لآخر . ومن ثم قامت العلاقات الاجتماعية بين تلك الشعوب وبعضها البعض على الصراع والمنافسة التى تدفع موجات الهجرة الهائلة لتلك الشعوب ، أما المجتمع اليابانى ، فقد تطور من جماعات محلية تحترف الزراعة وخاصة زراعة الأرز وغلب الاستقرار على حياتها الاجتماعية ، فاستمرت العائلات على تعاقب الأجيال وإرتبطت العائلات التى تقيم فى مكان واحد بأواصر القربى، وعظم سلطان العرف الاجتماعى ، فاذا أكد الفرد ذاته فى مجتمع كهذا لا يسىء إلى نفسه فحسب ، بل يسىء إلى الجماعة التى ينتمى اليها . ومن ثم كانت التربية اليابانية قائمة على غرس قيم الولاء للعائلة الصغرى (الأسرة) والعائلة الكبرى (الأمة) فى نفوس النشء (١٢) .

وترتب على ذلك أن أصبح « البيت Ie » يتمتع بمكانة رفيعة فى التراث الثقافى اليابانى ، وفكرة « البيت » ذات مدلول واسع المعنى يتجاوز حدود بيت الأسرة ليشمل بيت الأمة (الوطن) . ولا بيت بدون آباء ، فالمحافظة على البيت تقتضى مراعاة تعاليم السلف . ولذلك وجب على الأفراد تدعيم البيت ، والعمل على رفع شأنه ، وإطاعة رب البيت . ولا تعنى فكرة « البيت »

- كما استقرت فى ضمير الشعب اليابانى - أن تكون رابطة الدم هى أساس العلاقة بين من يقيمون فيه ، فلا وزن هنا لصلة الدم ، وإنما رابطة المكان هى التى تجمع بين سكان « البيت » وكذلك رابطة العمل الانتاجى أيضا . فالذين يعملون فى فلاحة الأرض يعدون أفرادا فى أسرة صاحب الأرض حتى لو لم تجمع بينه وبينهم صلة الرحم ، ومن يعملون لدى التاجر فى متجره يعدون ضمن أفراد أسرته أيضا ، لهم ما لأفرادها من حقوق ، وعليهم ما على أفرادها من واجبات .

وقد لعبت فكرة « البيت » دورا هاما فى النهضة الاقتصادية التى شهدتها اليابان فى مرحلة بناء الدولة العصرية عن عهد مايجى ، فلم تكن المشروعات الصناعية الخاصة التى أقيمت ترتبط بأفراد معينين ، وإنما قامت تلك المشروعات على أكتاف عائلات كبرى (بالمفهوم اليابانى للعائلة) ، فلم يكن لأصحاب رأس المال دخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة فى إدارة تلك المشروعات ، وإنما جعلت الإدارة بيد أخصائيين لهم مطلق التصرف ، لا سلطان لأحد عليهم سوى مجلس الإدارة الذى هو — فى نفس الوقت — مجلس العائلة .

ولتفسير ذلك نشير إلى أن مجموعة عائلة Mireui — مثلا — التى مارست نشاطها إلى فى الأعمال المالية والتجارية منذ القرن الثامن عشر ، ثم نقلت نشاطها إلى ميدان الصناعة فى القرن التاسع عشر ، كانت فى حقيقة الأمر تتكون من أحد عشر أسرة رأسمالية متساوية تقريبا لا ترتبط بينها رابطة الدم ، ولكنها مارست نشاطها منذ القرن الثامن عشر حتى الآن تحت اسم « بيت متسوى » . وكذلك الحال بالنسبة لبيوت سوميتومو Sumitomo وزايباتس Zaibatsu التى كانت بمثابة إمبراطوريات مالية احتكارية تسيطر على النشاط الاقتصادى فى البلاد ، وكان كل عامل فى احدى المؤسسات التى أقامتها تلك البيوت المالية الكبرى يعد نفسه مسئولا عن رواج نشاطها ،

وكانت الطريق مفتوحة دائما لمن يظهرون كفاية ومقدرة ممتازة من العمال للترقى فى مناصب الادارة حتى يصبحون أعضاء فى مجلس العائلة صاحبة رأس المال ويحملون لقبها . ومن ثم كان التفانى فى العمل هدف الفرد ليظل إسم العائلة مرموقا ويتحقق النجاح لمشروعاتها [١٣] ولعل ذلك يفسر ظاهرة النمو الاقتصادى السريع لليابان على مدى نصف قرن (١٨٥٤ — ١٩٠٤) فلم يكن هذا النمو العظيم يعتمد على الامكانيات المادية وحدها ، وإنما كانت تغذية التقاليد اليابانية العريقة القائمة على « وحدة المجتمع » .

وأثمرت هذه الوحدة الاجتماعية الفريدة اتجاها أخلاقيا يدفع الفرد إلى التضحية بالنفس والجود بها عن طيب خاطر من أجل مصلحة الجماعة التى يهبها حياته ، ولعبت هذه القيمة الخلقية دورا هاما فى المجتمع اليابانى ، وإنعكسب على تاريخه ، وتطورت الفكرة من التضحية بالنفس من أجل الأسرة ، إلى التضحية بالنفس من أجل العشيرة فى ظل النظام الاقطاعى ، إلى التضحية بالنفس من أجـــل الوطن والامبراطور فى مطالع العصر الحديث [١٤] .

وكان من الصعب أن تنسم هذه الرؤية التقليدية للمجتمع معروح العصر الحديث الذى بدأت اليابان تطرق أبوابه فى عصر مايجى ، ومع اللبرالية الغربية التى كانت تمثل الإطار الأيديولوجى لذلك العصر والتى تقوم على أساس إسقاط القيود عن حرية الأفراد ، ومشاركتهم بصورة إيجابية فى إدارة أمور البلاد على قدم المساواة وفى محتوى ديمقراطى .

لذلك لم تشهد اليابان فى مرحلة بناء الدولة العصرية (١٨٥٤ — ١٩٠٤) ثورة برجوازية على نحو ما عرفته أوربا ، فقد أقصى الحكام الاقطاعيين من أسرة طوكوجاوا عن الحكم بعد ما سلبوا السلطة الفعلية من الإمبراطور

مدة قرنين ونصف قرن من الزمان ، واستعاد الامبراطور سلطته كاملة ، وتم ذلك كله على يد فريق من الأمراء الاقطاعيين أنفسهم الذين عرفوا باسم الساموراى Samurai بهدف انقاذ البلاد من الفتن والانقسامات الداخلية ، والحيلولة دون وقوعها تحت نير الاستعمار الغربى وخاصة بعد ما استسلم نظام طوكوجاوا للأمريكيين وقرر فتح موانيه أمام التجارة العالمية بعد قرنين كاملين من العزلة التى فرضت على البلاد .

وكان الامبراطور الذى يتربع على العرش حينذاك هو الامبراطور موتسهيتو Mutshito الذى لم يكن قد تجاوز الرابعة عشر من عمره . ومن الطريف أنه كان بين الساموراى الذين تزعموا هذه الحركة بعض أفراد من أسرة طوكوجاوا نفسها ، فساهموا بأيديهم فى تقويض سلطة عائلاتهم لحساب الامبراطور الصبى . ولكنه موقف يتسق تماما مع العقلية اليابانية التى تكونت على نمط معين يستند إلى التراث الفكرى اليابانى فالامبراطور ليس مجرد حاكم سياسى ، ولكنه يعد سليلا للآلهة عبادته فرض واجب على كل يابانى. وتستند هذه الفكرة إلى العقيدة الشنتوية التى تذهب إلى أن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة ، ثم انفصلت السماء عن الأرض ، وبعد إنفصالها هبطت الآلهة Izanami والآله Izanagi من السماء على جزيرة Onokoro وخلقا معاً جزر Oyashima (الجزر اليابانية) ، ثم خلقا بعد ذلك بقية الآلهة : إله الرياح ، واله الأشجار والجبال ، ولقيت الآلهة Izanami حتفها متأثرة بحروقها البالغة حين وضعت اله النار . وتذكر الأساطير الشنتوية أن زوجها الآله Izanagi اشتاق لرؤيتها ، فذهب إلى أرض الليل حيث التقى بهائم عاد مرة أخرى إلى العالم واغتسل من تراب الموت فاذا بثلاثة آلهة يخرجون من عينيه وأنفه ، ومن بين هؤلاء الآلهة الثلاثة آلة الشمس Amaterasu Omilkami التى إنحدر من نسلها أباطرة اليابان .

ومثل هذه التوليفة من خلق الكون والنظام السياسى نادرة الوجود فى

الحضارات الشرقية الأخرى بما فى ذلك الحضارة الفرعونية وأكثر من ذلك فان لفظ oyake فى اليابانية القديمة كان يقصد به (العائلة الرئيسية) أى العائلة الامبراطورية ، بينما أطلقت كلمة Koyake على الناس كافة وتعنى (العائلة أو العائلات الصغرى) . ومن ثم ساد الاعتقاد أن العائلة الامبراطورية هى نواة الشعب اليابانى كله ، وإرتبطت بهذه العقيدة مفاهيم « الأمة المقدسة » والشعور الوطنى المتطرف الذى إمتاز به الشعب اليابانى حتى أن الأباطرة درجوا على أن يضمنوا ديباجة المراسيم التى يصدرونها عبارات مثل : ... « نحن مالك ثروات العالم ... نحن مالك زمام القوة فى الدنيا ... » (١٥) .

وإذا أدركنا ذلك كله فهمنا الدوافع التى جعلت فريقا من الساموراى يثورون على إخوانهم فى السلاح والمصلحة من أجل إستعادة سلطة الامبراطور وإقامة دولة قومية مركزية عصرية قوية تحمى البلاد من الخطر الذى كان يتهددها وتنقذها من الوقوع تحت نير الإستعمار الغربى . أضف إلى ذلك فكرة الولاء للبيت كموطن للأسرة الصغيرة أو البيت (اليابان) كوطن للأمة اليابانية ، وهى فكرة غرست فى تكوين العقلية اليابانية شعورا وطنيا متطرفا يمزج بين الولاء للوطن وطاعة رب العائلة (الامبراطور) والتضحية بالنفس فى سبيلهما .

فمنذ عهد بعيد إستقر فى أذهان اليابانيين أن بلادهم « أعظم بلاد العالم قاطبة » لأن الآلهة صنعتها قبل صنعها لبقية بلدان العالم ، فهى بمثابة الابن البكر للآلهة ، وهى أرض لها قداستها وإحترامها . ولعل أول ذكر لعبارة اليابان العظمى Dai Nippon » — التى راجت فى فترة ما بين الحربين العالميتين — يرجع إلى القرن التاسع الميلادى حين أورد الفيلسوف اليابانى Dengyo هذه العبارة فى كتاباته . ولم يكن لهذه العبارة — عندئذ — مدلول سياسى ، وإنما قصد بها صاحبها أن اليابان أنسب البلاد للعقيدة البوذية . وإستقر مفهوم « اليابان العظمى » فى القرن الرابع عشر الميلادى عندكونها « أمة مقدسة » جاءت من نسل الآلهة الشمس ، ومن ثم وجب على أبنائها أن يعملوا

على جعلها أعظم بلاد الدنيا ، وأن يظل الأباطرة الذين إنحدروا من نسل الشمس متربعين على عرش اليابان ورأى اليابانيون فى المفهوم السياسى « للدولة » اليابان ذاتها حيث يحتل الامبراطور منزلة الأب بالنسبة للأمة اليابانية (١٦) .

وقدمت الكونفوشيوسية الأساس النظرى الذى قام عليه هذا الشعور الوطنى المتطرف ، فقد اعتنق اليابانيون الكونفوشيوسية التى إتخذها الصينيون من قبل نظرية رسمية لمفهوم الدولة والسلطة (فيما عدا الجانب الخاص بتغيير الحاكم الفاسد) وذلك على الرغم من إختلاف وجهة النظر الخاصة بالدولة عند فلاسفة الصين عنها عند اليابانيين ، فبينما رأى الصينيون الدولة شيئا مثاليا نموذجيا أشبه ما يكون بالمدينة الفاضلة،رأى اليابانيون فى الدولة الحقيقية اليابان ذاتها حيث الحاكم والأب يحتلان نفس المنزلة . لذلك نعى المفكرون اليابانيون على كونفوشيوس مغادرته لبلاده سعيا وراء البحث عن مجتمع أفضل يحكمه حاكم أعدل . وفى ذلك يقول يوشيدا (١٨٣١ — ١٨٥٩) أحد دعاة حركة التجديد فى اليابان : كان كنفوشيوس ومنشيوس على خطأ عندما تركا بلدهما وذهبا ليخدما دولة أخرى ، لأن الحاكم له نفس منزلة الأب وأن من يصف الحاكم بالرعونة والظلم مثله كمثل من يرمى أباه بالحماقة ، ويترك بيته حيث تقيم عائلته ، ويلجأ إلى بيت الجيران ويصبح أبنا لهم ، ولذلك فان كونفوشيوس كانا قصيرا النظر ، ولا يمكن أن نلتمس مبررا لما أقدما عليه » (١٧) .

وقد وجه هذا الشعور الوطنى الذى يعد الوطن بيت الأمة ، والحاكم رب البيت ، النظرة اليابانية إلى البوذية فرغم انتشار البوذية فى اليابان على نطاق واسع ، رفض اليابانيون فكرة « الدولة » عند البوذية.فذهب مفكرو القرن الرابع عشر إلى ضرورة إعتناق الفكر البوذى مع التغاضى عن الجانب الخاص « بالدولة» ، ويبررون ذلك بأن رؤية البوذية للدولة هندية ،وقد يكون حكام

الهند منحدرين من سلالة البشر أسندت اليهم شعوبهم مهمة الحكم ، ولكن العائلة الامبراطورية اليابانية هي العائلة الوحيدة التي إنحدرت من صلب الآلهة ، ولذلك لا يجب أن تكون سلطتها موضع مناقشة .

وقد تجلت ملامح هذا الشعور الوطني الذي عرفته اليابان قبل عهد مايجي في تضحية اليابانيين منذ القدم بحياتهم من أجل بلادهم وإيقاف حياتهم على خدمتها وهي سمة لم تتوافر لدى معظم شعوب الشرق فيما قبل القرن التاسع عشر . وقد تطورت «الوطنية» اليابانية من مفهوم الدولة اليابانية ذاته وليس من مفهوم « الدولة » كمعنى مجرد ، ولذلك صلة وثيقة بظاهرة « الوحـــدة الاجتماعية » التي تربط بين الناس والأرض والسلطة في إطار واحد ، وقد ساعد الموقع الجغرافي على احتفاظ اليابان بهذه الوحدة وثيقة العرى ، فهي تتكون — كما هو معروف — من جزر معزولة عن القارة الأسيوية ، ولم تعهد الغزو الأجنبي إلا في حالتين أولها الغزو المغولي الذي لم يقدر له النجاح ، وثانيهما الاحتلال الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية . ودعم هذا الشعور الوطني الفياض قيام صلة الفرد بالدولة على أساس أسرى فالشعب الياباني أسرة واحدة ذات أصل واحد تسكن بيتاً واحداً هو اليابان ويرعاها رب واحد هو الامبراطور .

وبذلك توافرت لليابان ملامح « وطنية » واضحة ، قبل القرن التاسع عشر بزمن بعيد ، وقبل وصول المؤثرات الفكرية الغربية الحديثة إلى البلاد . وقامت تلك الملامح على أسس راسخة من التراث الثقافي الياباني ، لتعبر عن واقع يختلف اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً اختلافاً جذرياً عن فكرة «القومية» بمفهومها الحديث .

لذلك كان شعار « استعيدوا سلطة الامبراطور » الذي اتخذته الحركة المناهضة للحكم الإقطاعي — يفعل فعل السحر في نفوس الناس . ولم يلاق القائمون على الحركة مقاومة ذات بال ، فحققوا هدفهم بإقصاء آخر حكام

طوكوجاوا ، وإقامة سلطة قومية مركزية ، وإلغاء الإقطاع ، وإقامة نظام تعليم حديث مقتبس من الغرب ، وصناعة حديثة ، وجيش حديث وفق النظام الغربى . وأطلق على عهد الامبراطور Mutsuhito منذ تمت الحركة بنجاح فى عام ١٨٦٨ حتى وفاته فى عام ١٩١٢ اسم عهد مايجى Meiji (أى الحكم المستنير) . ولكن بناء دولة عصرية على النمط الغربى لم يكن بمجرد تقليد أعمى، ونقل مباشر لأنظمة الغرب ، وإنما أخذ القائمون على أمور البلاد من الثقافة مالم يتعارض مع تراثهم الفكرى ، ووفقوا — أحياناً — بين تراثهم الموروث والفكر الغربى الوافد فيما لا يمس التقاليد اليابانية العريقة ، ورفضوا الأخذ بما لا يتفق مع الخلفية الحضارية للأمة اليابانية وخاصة فيما يتعلق بنظام الحكم فلم يكن بناء الدولة الحديثة مقروناً بتبنى الليبرالية الغربية قاعدة لنظام الحكم الجديد ، أو الأخذ بالديمقراطية كاطار للنظام السياسى لتناقضهما مع العقلية اليابانية التى لاتعترف بمبدأ « المساواة » ولاتجادل فى حق الامبراطور فى ممارسة سلطته الأبوية بلاحدود على أبناء شعبه .

ومن ثم تركزت السلطة فى يد صناع النظام الجديد ، أى العناصر العسكرية من الساموراى ، فتكون منهم مجلس البلاط ، وشغلوا المناصب الوزارية ، ومارسوا حكم البلاد حكماً مطلقاً باسم الامبراطور حتى عام ١٨٧٣ حين انقسموا على أنفسهم حول مسألة غزو كوريا ، وانشق الجناح المثقف منهم الذى تلقى تعليمه فى الغرب ، ونادى بضرورة إصدار دستور يقر مبـــدأ المسئولية الوزارية ، لتبدأ بذلك حركة المطالبة بالدستور التى عرفت فى تاريخ اليابان الحديث باسم حركة الحرية وحقوق الشعب « Jiyu Minken Undo » التى تزعمها مثقفوا الساموراى وأعيان الريف ، وكانت موجهة ضد استبداد الساموراى وانفرادهم بالسلطة ، ولم تكن موجهة ضد الامبراطور . وما كاد الامبراطور يصدر إعلاناً (فى أبريل ١٨٧٥) يشير إلى رغبته فى أن « يقيم نظاماً دستورياً بصورة تدريجية لتحقيق النفع العام » حتى خمدت نيران

الحركة . ثم جدد الامبراطور الإعلان فى ١٨٨١ ، فوعد باصدار الدستور بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ .

وفى غضون تلك الفترة تكونت ثلاثة أحزاب سياسية هى : « الحزب الحر » Jiyuto ، و « الحزب التقدمى » Rikken Kaishinto ، و « الحزب الامبراطورى » Teiaets ولم تكن تلك الأحزاب السياسية تعبر عن مصالح طبقية متباينة ، فقد جاء أعضاؤها من طبقة واحدة هى ذات الطبقة المسيطرة على مقاليد السلطة فى البلاد ، وإنما كانت الأحزاب تعبيراً عن اختلاف وجهات النظر بين قيادات الأرستقراطية الحاكمة . وكان الانتماء للحزب السياسى — فى ذلك الحين — لا يعنى اعتناق برنامج معين ، أو أفكار معينة ، وإنما كان يعنى — فى المحل الأول — الولاء الذى يربط الأعضاء بشخص زعيم الحزب . ولا يعنى ذلك أن الأحزاب السياسية التى ظهرت فى عهد مايجى لم تتأثر بالفكر اللبرالى الغربى ، وإنما كان تأثرها بقدر محدود لا يتجاوز حدود المطالبة بمسئولية الحكومة أمام مجلس نيابى منتخب من بين أبناء الصفوة الممتازة وليس من القاعدة الشعبية العريضة . وكانت عضوية الأحزاب قاصرة على نفر من المثقفين الذين ينتمون إلى الطبقة الحاكمة . أما جماهير الشعب فكانت ترى فى نظام الحكم السليم ذلك الذى يعمل على بناء اليابان الحديثة ويجد حلا للمشاكل اليومية التى يعـانى منها الناس ، يضع حداً للكساد الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى الثمانينات على وجه الخصوص(١٨) .

وحين صدر الدستور فى عام ١٨٨٩ كان منحة من الامبراطور إلى الشعب وخلع الدستور على الامبراطور سلطات غير محدودة ، يعاونه مجلس البلاط الذى كان يضم صفوة ممتازة من أعضاء الأسرة الامبراطورية ، ثم مجلس آخر — كان المخطط الرئيسى لسياسة اليابان الداخلية والخارجية حتى عام ١٩٣١ — هو مجلس كبار الساسة Genro وتكون البرلمان من مجلسين هما : مجلس النبلاء الذى كان يضم جميع أمراء البيت الحاكم وزعماء البيوت الإقطاعية القديمة ،

ثم مجلس النواب ويضم ممثلين للشعب روعى فى اختيارهم أن يكونوا على قدر كبير من الثراء ، وذلك أفسح المجال أمام الفئات الاجتماعية التى استفادت من التطور الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى عصر مايجى لتسمع صوتهـــا للحكومة دون أن يكون لها حق مراجعة أو نقض قرارات السلطة التنفيذية(١٩).

وهكذا جاء الدستور اليابانى معبراً عن واقع المجتمع اليابانى حينذاك ، مركزاً السلطة كلها فى يد الامبراطور والصفوة الممتازة التى كانت تملك زمام الأمور قبل صدور الدستور . وارتضت الجماهير هذا الدستور لأنها لم تجـد فيه ما يتناقض مع التقـــاليد الموروثة التى تربت عليها وتراثها الحضارى العريق .

ورغم أن الفصل بين السلطتين : الروحيـة والزمنية ، كان من أسس الليبرالية الغربيـة ، فإن اليابان ظلت — على النقيض من ذلك — تنظر إلى السلطتين باعتبارهما شيئاً واحداً لا يتجزأ حتى هزيمتها فى الحرب العالميـة الثانية . فقد كانت الحياة السياسية مرآة صادقة للمعتقدات اليابانية التقليدية على نحو ما رأينا ، ولم ينظر اليابانيون إلى المجتمع إلا من هذه الزاوية ، فحرية الأفراد بمفهومها الليبرالى لم تـكن واردة على الإطلاق ، وإنما رأى اليابانيون فى المواطن الصالح انعكاس صادق للدولة القوية ، فإذا صلحت الحـكومة صلح أمر الناس ، ورفاهية المجتمع رهن بمشيئة الحـاكم ، أما القوانين فتعبر عن وجهة نظر الحاكم فيما يراه لازماً لصلاح أمر المجتمع . ولم تر العقلية اليابانية — حينئذ — فى تلك القوانين الحارس الأمين على حقوق الأفراد ، والضمان الأكيد لحريتهم الشخصية ، لأن ذلك يعنى تقويض دعائم الوحدة الاجتماعية ، التى قام عليها المجتمع اليابانى ، والتى تعد المجتمع أسرة واحدة ، ولا قيمة للفرد إذا انفصل عنها أو خرج عليها ، إذ المجتمع عند اليابانيين — ينقسم إلى حكام ورعية ، ومهمة الدستور — فى رأيهم — أن يكون دليلا للحكام وليس حامياً لحقوق الأفراد(٢٠) .

لذلك بقيت القيادة السياسية — فى ظل الدستور الذى صدر فى عصر مايجى — بيد الساموراى ، الذين رأوا أن خير اليابان يتطلب تحقيق درجة عالية من التقدم المادى من خلال التصنيع والأخذ بالأساليب التكنولوجية الغربية مع التمسك فى الوقت نفسه بالقيم السياسية التقليدية للشعب اليابانى التى تقوم فى معظمها على الأساطير القديمة. فحرصوا على إقامة صناعة حديثة تعتمد على الأساليب التكنولوجية الحديثة وتقوم على ملكية الدولة لأهم مصادر الإنتاج مع تشجيع المشروعات الخاصة وتقديم العون لها من أجل بناء اقتصاد قوى متطور ثم تسليمها مصادر الإنتاج التى احتفظت الدولة بملكيتها تدريجياً وخروج الدولة من مجال الإنتاج ، والعمل فى نفس الوقت على إحياء القيم التقليدية التى ترجع إلى عصور خلت والتركيز عليها فى عملية التربية والتعليم، والتمسك بها كأساس أيديولوجى لمجتمع يتمتع بالفرفاهية الاقتصـــادية والتقدم المادى .

وخلال عملية البناء المزدوج للمجتمع اليابانى الحديث الذى يجمع التقدم المادى جنباً إلى جنب مع الفكر التقليدى ، لم يفرض الحكام حظراً على حرية الفكر أو حرية القول ولم يحجروا عليهما ، ولم يفرضوا القيود التى تحد من حرية التعبير ، لأنه لم تكن ثمة حاجة إلى ذلك ، طالما أن أفكار الناس - فى ذلك العصر — لم تكن تختلف جذرياً عن رؤية الحكام للقواعد التى يجب أن يشيد عليها بناء الدولة الحديثة . فقد قامت فى عصر مايجى أحزاب سياسية — على نحو ما أشرنا - ولكن تلك الأحزاب لم تكن تعدو أن تكون « جمعيات سياسية » لأنها اتفقت جميعاً على الغاية التى تنشدها لبلادها ، ولكن تعددت وجهات نظرها حول السبيل الذى يجب أن يسلك لتحقيق تلك الغاية .

لقد كان الضمير اليابانى يرى فى الأفراد خدم للمصلحة العامة : مصلحة الأسرة ومصلحة الدولة ، ولا أهمية للفرد بذاته ، كما كان يرى أن علاقة الحكام

بالناس لاتختلف على طابع العلاقة بين الآباء والأبناء . وقد جاءت الأحزاب السياسية فى عصر مايجى نتاجاً للضمير اليابانى فى ذلك الحين ، فلم تكن تختلف جذرياً مع الهيئة الحاكمة ، بل كان أعضاء تلك الأحزاب ينتمون إلى الطبقة الحاكمة بصورة أو بأخرى . وبذلك ظلت السمات الرئيسية للعلاقة بين السيد والأتباع فى النظام الإقطاعى تشكل طابع الحياة السياسية فى اليابان تحت حكم مايجى على الرغم من أن الإقطاع ألغى بصفة رسمية فى عام ١٨٧١ .

وقد ظل هذا الطابع غالباً على الحياة السياسية فى اليابان طوال مرحلة تكوين الدولة العصرية فى عهد مايجى . غير أن التوسع فى التصنيع، وازدياد عدد السكان صحبته هجرة مستمرة من الريف إلى المدن ، فعلى الرغم من ارتفاع نسبة المواليد فى الريف اليابانى خلال ذلك العهد وتوفير الرعاية الصحية للسكان، ظل عدد سكان الريف ثابتاً ، وامتصت المدن التى قامت بها الصناعة الحديثة أكبر قدر من السكان . وأدت هذه الهجرة المتصلة للشباب من الجنسين إلى المدن والمراكز الصناعية إلى أضعاف الروابط الأسرية التى قام عليها المجتمع اليابانى ، غير أنها لم تقض عليها قضاء تاماً ، وينعكس هذا التطور على الأدب فى عصر مايجى ، فنجده يحفل بالصراع بين الأسرة والفرد حيث تنتصر الأسرة غالباً (٢١) .

ونستطيع أن نتبين هذا الصراع الكامن تحت سطح المجتمع فى الأعمال الروائية التى ظهرت فى عهد مايجى ، ففى رواية «ماذا بعد Sore Kara» التى كتبها ناتسومى سوسيكى Natsnme Suseki ، يصف الكاتب انطباع شاب يدافع عن أبيه فيقول : « تلقى والده تربيته على النحو الذى كان ينشأ عليه الساموراى قبل عصر مايجى ، وما تلقنه الوالد أصبح يختلف عن حقائق الحياة اليومية ، ولكنه لا زال يعتقد في صلاحية تلك القيم التي تعلمها لكل

العصور ، رغم أن ظروف الحياة أثبتت عدم صحة ذلك الاعتقاد . فقد تغير أسلوبه بتغير الظروف المعيشية حتى أصبح واقعة اليوم لا يكاد يشبه واقع الأمس إلا قليلا على الرغم من أنه لا يشعر بذلك التغير . ولا ريب أنه لا زال يظن أن تربيته العسكرية الصارمة سر نجاحه ، ولكن دايسكى Daisuke (الابن الشاب) ينظر إلى الأمور بصورة أخرى فكيف يستطيع المرء تلبية حاجات الحياة العصرية من خلال قيم اقطاعية ! فمهما بذل المرء من جهد فان الصراع العنيف سينشب لا محالة بين المرء ونفسه ... » .

ويتجلى هذا التباين بين ما حققته اليابان من نهضة حديثة ومن القيم التقليدية للمجتمع الإقطاعى فى رواية أخرى كتبها اشيكاوا تاكوبركو Ishikawa Tokuboku أشهر شعراء عصر مايجى بعنوان Kumo wr tensai dearu يبدو فيها البطل فى نفس ظروف الكاتب نفسه لا يرى فى المجتمع اليابانى فى عصره إلا نموذجاً للفساد لا يستحق إلا الدمار . وقد كتب المؤلف خطابا إلى أحد أصدقائه ذكر فيه أنه اضطر إلى نشر هذه الرواية حتى يحصل على بعض المال ليدفع التزاما قديما نحو شقيقه الأكبر أهمله منذ زمن بعيد ، ولم يحدد هذا الالتزام بصورة واضحة ، ولكنه يرتبط بالقيم اليابانية التقليدية التى تدعو للتكافل والتضامن بين أفراد الأسرة كلها ، وبطل هذه الرواية كما صوره المؤلف ساخط على قيود المجتمع التى تسلبه حريته وتجعله عبدا لها[٢٢] .

ومهما كان الأمر فان هذا الصراع بين جيل الشباب الذين تفتحت عيونهم على مجتمع متطور من الناحية التكنولوجية يعيش بقيم إقطاعية بالية لم يكن يستطيع التعبير عن سخطه بصراحة مطلقة ولم يتحول ذلك النوع من المعاناة إلى صراع إيديولوجى أو حزبى لأن أحدا من اليابانيين لم يكن يجرؤ على الجهر بمناصبة قيم المجتمع اليابانى العداء دون أن يجد نفسه فى مواجهة تهمة الخيانة للدولة ودون أن يعد خارجا على عقيدة الشعب اليابانى كله

وقد تحمل المثقفون اليابانيون عبء هذه المعاناه نتيجة التناقض بين واقع الحياة وقيم المجتمع ردحا طويلا من الزمان .

غير أن أسلوب التعبير الغربى تسرب إلى الحياة الفكرية اليابانية من خلال بعض المثقفين الذين احتكوا بالفكر الغربى وتأثروا به بدرجات متفاوتة ويأتى على رأس هؤلاء ثلاثة من كبار مفكرى عصر مايجى هم : فوكوزاوا Iukuzawa وأوتشيمورا uchimura وأوكاكورا Okakura ، ينتمون إلى الجيل المخضرم الذى عاصر عهد طوكوجاوا وعصر مايجى وانحدروا من أسر إقطاعية عريقة فكانت تربيتهم تقليدية شأنهم شأن أبناء الساموراى ، وحين اشتدت أعوادهم نهلوا من منابع الثقافة الغربية ، كما قدموا اليابان والثقافة اليابانية إلى الغرب فى مؤلفاتهم التى نشروها باللغة الانجليزية ، فتجلت فيهم عملية الاحتكاك الفكرى بين اليابان والثقافة الغربية الانجليزية والأمريكية على وجه الخصوص . وظلوا طوال حياتهم يعتقدون أن ثمة رسالة حضارية تقع على عاتق اليابان هى إيقاظ الشرق وإنقاذه من وهدة الاستعمار . فعلى اليابان — فى رأيهم — أن تعين شعوب الشرق على الاستفادة من الجوانب الإيجابية فى الحضارية الغربية التى تساعد على تطوير مجتمعاتهم وتجنب مفهوم المدنية الذى تقدمه دول الغرب لشعوب الشرق فعلى حد تعبير فوكوزاوا « المقصود بالمدنية عندما يتطرق الحديث إليها بين رجال الغرب هو خروج الشعوب الشرقية من مرحـــلة الحياة الهمجية إلى مرحلة العبودية للرجل الأبيض » .

ومستقبل اليابان عند أولئك المفكرين يعتمد إلى حد كبير على الاهتمام بالتربية والتعليم وتطوير البلاد اقتصاديا مع تلوين العقيدة المسيحية بالتراث اليابانى تماما كما فعلت اليابان بالكونفوشيوسية والبوذية. وانتقد فوكوزاوا فى كتابه أصول الحضارة اليابانية Nihon Bunmei no Yurai الاتجاه الذى كان سائدا فيما قبل عصر مايجي من اتخاذ العلم نوع من الترف وعزلة العلماء

عن المجتمع ودعا إلى استقلال العلم عن سلطة الدولة وإلى اتجاهه إلى الأخذ بالمنهج التجريبي والعمل على خدمة المجتمع وحل مشاكله وما يقال عن العلم يمكن أن يقال أيضا — في رأيه — عن الفن والعقيدة الدينية .

يتجلى أثر الفكر الليبرالي في تكوين فوكوزاوا بوضوح في مفهوم التطور الحضاري عنده . فهو يرى أن هذا التطور يؤدي إلى زيادة تعقد العلاقات الإنسانية وتشابكها على المستوى المحلي والعالمي سواء بسواء ويصحب هذا التطور تشعب الوظائف الاجتماعية لكل الفئات التي تعيش في المجتمع فلا تستقر الأوضاع الاجتماعية على حال واحد ، وتسقط كل الحواجز التي تصنف الناس على حسب مولدهم ، فكل فرد يجب أن ينظر إليه من خلال أعماله وليس من خلال أصله الاجتماعي . فعلى حد تعبيره « ليست أعمال كل من انحدروا من أصول رفيعة طيبة بالضرورة ، وليست أعمال كل من انحدروا من أصول وضيعة سيئة بالضرورة » وفي هذا نقد صريح للتقاليد اليابانية التي تبرز قيم الأسرة وتركز على الروابط الاجتماعية المحدودة الدائرة ، ولا تعتبر الفرد إلا في نطاق الجماعة التي ينتمي إليها ففكرة المساواة واتخاذ الفرد وانجازاته أساسا لتحديد دوره في المجتمع والمساواة بين الأفراد بغض النظر عن أصولهم الطبقية إنما كانت فكرة جديدة على العقلية اليابانية في ذلك الحين .

لذلك كان من الطبيعي أن يشن أنصار المحافظة على التراث التقليدي الياباني حملة شعواء ضد فوكوزاوا ، ويتصدى فوكرزاوا لهذه المعارضة في مقال مشهور نشره بجريدة تشويا Choya Shimbun جاء فيه : « انهم يخلطون بين الأشياء بطريقة عشوائية نتيجة مايقدمونه من اقتراحات ، فهم يفترضون أن المساواة في الحقوق بين جميع أفراد الشعب مأخوذة من المبادىء الجمهورية والمبادىء الجمهورية مأخوذة من المسيحية ، والمسيحية ثقافة غربية ... وهم يفترضون أنه طالما كانت ثقافة فوكوزاوا غربية ، فان نظريته الخاصة

بحقوق الشعب مستمدة من المسيحية والمبادىء الجمهورية ... وترجع مثل هذه الاقتراحات إلى رؤية الأشياء من جانب واحد ... فتاجر الخمر ليس بالضرورة عاقرها ، وصانع الحلوى ليس بالضرورة آكلها ، ولا يجب أن نحكم على التاجر بمجرد رؤيتنا للبضاعة الموجوده فى متجره ... وبذلك يشير فوكوزاوا إلى أن الأفكار التى يقدمها إنما تلبي حاجة المجتمع تماماً مثل البضاعة التى يعرضها التاجر تلبية لطلب السوق . وهو إصرار منه على مبدأ المساواة بين جميع المواطنين فى الحقوق والواجبات .

وقد اتفق مع فوكوزاوا فى هذا الإطار الفكرى زميله أوتشيمورا واوكاكورا فرأيا فى تدعيم روح الاستقلال الفردى وإطلاق حرية الفرد دعامة أساسية للنهضة الحديثة ، وقاعدة الاستقلال الوطنى تمكن اليابان من أن تلعب دور الوسيط بين « أوربا المادية » و « آسيا الروحية » وتفتح أبواب الشرق المحافظ أمام الحضارة الغربية المتقدمة[٢٣] .

غير أن دعوة هؤلاء المفكرين كانت تبدو غريبة فى ذلك العصر فقد ارتضى اليابانيون واقعهم المتصل بتراثهم القديم وألفوا الحياه فى دائرة الروابط الاجتماعية المحدودة ولم ترى أبصارهم إلى تحقيق المساواة التامة بين المواطنين فى مجتمع هرمى حدد فيه موقع كل طبقة بصورة تقليدية مسلم بها من جميع القوى الاجتماعية والسياسية فيما عدا قطاع محدود من المثقفين المفكرين .

وإذا كان هناك تناقض فكرى عانى منه بعض اليابانيين فى ذلك العصر، فمرد ذلك إلى طبيعة الحياة فى مجتمع يمر بمرحلة جديدة من مراحل تطوره الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، بماتتضمنه من تباين شائع بين الموروث والمكتسب من المظاهر الحضارية المادية ، فتغيرت عادات الطعام والملبس. أهملت بعض العادات التى تتنافى مع طابع المجتمعات المتحضرة ، وترجمت الكتب والآثار الأدبية الغربية إلى اللغة اليابانية فتركت بصماتها على البناء

الفنى للأعمال الأدبية اليابانية فى حدود ضيقة لأن اليابانيون لم يتحمسوا لأسلوب التعبير الغربى ، كما لم يأخذوا بأساليب الحياة الغربية دفعة واحدة، وإنما كانوا يأخذون بها تدريجياً وبحذر شديد .

وخلاصة القول أن النهضة اليابانية الحديثة — فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر — قامت على أصول ثقافية يابانية خالصة مستمدة من التراث اليابانى التقليدى ، تغذيها تلك المقدرة الفائقة على امتصاص الحضارات الأجنبية التى امتاز بها الشعب اليابانى على مر تاريخه القصير ، وهضمه للمؤثرات الحضارية وإدماجها فى التراث اليابانى حتى تبدو وكأنها جزء أصيل منـــه ، فاستوعب اليابانيون الحضارات الشرقية الهندية والصينية والمغولية ، وحاولوا استيعاب الحضارة الغربية بنفس الطريقة فأخذوا منها الجانب المادى وصدوا عن جانبها الفكرى ، وأدى ذلك إلى فقدان التوازن بين العناصر المكونة للشخصية اليابانية التى كانت تعمل بأسلوب آخر متنافس تماماً مع أسلوب العمل .

غير أن « الوحدة الاجتماعية » التى قام عليها المجتمع اليابانى قدمت الحافز القوى الذى جعل الشعب يساند عملية بناء الدولة العصرية ، ويشارك فيها بهمة لا تعرف الكلل . فقيام المجتمع اليابانى على وحدة اجتماعية متداخلة نواتها الأسرة وإطارها الأمة خلق لدى اليابانيين شعوراً قومياً فريداً جعل الإحساس بالوجود مرادفاً لمجد الوطن ، وجعل التضحية فى سبيل الأسرة الصغيرة (العائلة) أو الأسرة الكبيرة (الأمة) غاية كل يابانى وهدفه الأسمى ، فلم تلق عملية تأسيس الدولة القومية العصرية أى عقبات . وجاء النظام السياسى الدستورى الذى ركز السلطة فى يد الامبراطور وحفنة من كبار رجال الدولة متمشياً مع العقلية اليابانية ، وإن بدا متنافراً مع إطار الدولة العصرية بالمفهوم الليبرالى الغربى .

وهكذا كانت ظروف اليابان الحضارية تقدم تربة صالحة لنمو الأفكار

الفاشية وقيام دكتاتورية عسكرية ، وهو ماحدث بالفعل فى ثلاثينات هـذا هذا القرن ووضع اليابان على الطريق إلى هزيمة عام ١٩٤٥ . ولذلك كانت عملية إعادة البناء بعد الحرب الثانية تركز على تهيئة الجو الملائم لتحقيق قدر أكبر من الديمقراطية ومحاربة الفكر اليابانى التقليدى فأرغم الامبراطور على إصدار إعلان ينكر فيه ألوهيته ، ومنح البلاد دستوراً يعطى للشعب سلطات أوسع فى مراقبة الحكومة ، ووضع أساس جديد للتربية هدفه تنشئة جيل ذا أسلوب مختلف فى التفكير من جيل ماقبل الحرب ، والعمل على إضعاف الروابط الاجتماعية العائلية التى تمثل محتوى ذلك الفكر التقليدى ، ورغم ذلك كله لم يقطع اليابانيون صلتهم بتراثهم الحضـــارى وظلوا أوفياء لأسلافهـم متمسكين بتقاليدهم العريقة ، ويثبت الشخصية اليابانية تتسم بالازدواجية والبون الشاسع بين أسلوب التفكير ومنهج العمل .

الحــواشى

(١) Sansom, G. B: The Western World and Japan, U.S. A 1950, pp 167—69.

(٢) Nakamura, H : Ways of Thinking of Eastern People, Hawaii 1964, pp 400—2.

(٣) Ibid, p 405.

(٤) Haltom, D. G : Modern Japan and Shinto Nationalism, 3 rd. edition, U.S. A 1963, pp 25—90.

(٥) Fukuzawa : Gomplete Works of Fukuzawa, vol II, p 184.

(٦) Yanaihara, T : A Short History of Modern Japan, (Tokyo 1966) pp 3—4.

(٧) Keene, D : The Japanese Discoyery of Europe 1720—1830; London 1969, pp 31-36.

(٨) Beasley, W. G : rent Britain and the Opening of Japan, London 1951, pp 133—44.

(٩) Nakamura H. : Op. cit.[pp 409—13.

(١٠) Ibid, pp 414-15.

(١١) Cressey; G. B : Asia's Lands and Peopls, N. Y 1944, pp 120—23.

(١٢) Nakane, C : Japunese Society, Un. of Calif. 1972, pp 8—22.

(١٣) Horie, T : The Trans for mation of the National Economy, A Chapter in Japan's Economic History (Tobat,ed : Op. cit./ pp 99, 80—84).

(١٤) Ibid, pp 12—16.

(١٥) Masaharu, A : A History of Japanese Religion, 1930, pp 105-7.

(١٦) Nakamura, H : Op. oit., pp 434-35.

(١٧) Ibid, pp 445-48.

(١٨) Nobutaka, I : The Beginning of Political Democracy in Japan, 1550, pp 195-201.

Ibid, p 210. (١٩)

Koltom, D. C : Op. cit., pp 115 - 20. (٢)

(٢١) للمزيد من التفاصيل حول الاتجاهات الأدبية فى عصر مايجى راجع :

Kunitomo: Tadao : Japanese Literature Since 1863, Tokyo 1938.

Smith, T ; The Agrarian Origins of Madern Japan (٢٢)
Sranford Un. Press 1970, pp 206 - 7.

Maruyama, M : Fukuzawa, Uchimura and Okoknra. (٢٣)
Mei:i Intellectuals and Westernizatfon. (in The Mode.nization of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1766). pp 594 - 611.

مصادر البحث

- Beasley, W. G : Great Britain and the Opening of Japan, London 1951.
- Cressey, G.B : Asa's Lands and Peoples, New York 1944.
- Horie, T : The Transformation of the National Economy, A Chapter in Japan's Economic History (in, Tobata, ed. : The Modernization of Japan, vol I, IAEA. Tokyo 1966).
- Holtom, D.B : Modern Japan and Shinto Nationalism. 3 rd, ed., 1963.
- Keene, D : The Japanese Discovery of Europe 1368, Toky 1938.
- Maruyema, M : Fukuzawa, Uchimura ond Okakura, Meiji Intellectuals and Modernization (in : Modernization of Japan, vol II, IDE, Tokyo 1966).
- Masaharu, A : Histoey of Japanese Religion, 1930.
- Nakamura, H : Ways of Thinking of Eastern Peoples, Haweii 1964.
- Nakane, C : Japanese Society, Un. of California Press 1972.
- Nobutaka, I : The Beginniugs of Political Democracy in Japan, 1950.
- Sansom, G.B : The Western World and Japan, 1950.
- Smith, T : The Agrarian Origins of Modern Japan, 1970.
- Yonaihara, T : A Short History of Monern Japan (in : Tobata, ed : The Modernization of Japan, vol I, IAEA; Tokyo 1966).